من أساليب الدعوة إلى الله
ضرب المثل النبوى

فوزى عبد العظيم سلامة محمد
معيد بقسم الدعوة

كان قصور الدعاة أول هذا القرن سببا فى إنهيار السدود أمام إمتداد الغرب ، ثم كان تقصير العارفين وإنكسارهم سبباً فى تخلف المسلمين ، وتقدم نهضات أخرى ، وليس فى شىء من هذا ما يدعوا إلى اليأس .

فإن تاريخ الأديان والأمم لا يحسب بأيام أو أعوام . وإذا ما نظرنا إلى الغرب نرى أنه لم يبلغ الدرجة التى بلغها إلا بعد مسيرة قرون ؛ تاوشته فيها أعراض شتى كاد بعضها يقضى عليه ، ومع ذلك فقد عاش ، وطغى ، واستكبر .

على أن النهضة الإسلامية الجديدة إذا كانت قد تراجعت فى ميدان السياسة ، فإنها نجحت نجاحاً محموداً فى ميادين أخرى . إن بذورها الفعلية والعاطفية قد أثمرت وازدهرت فى رجولات كثيرة صنعت بجهدها الفردى شيئا طائلا مما يرضى الله وينفع العباد ، متمسكين بقول الله تعالى (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً(١)).

وفى أطوار الدعوات عظة وعبرة لمن يريد أن يسير :

أرأيت إلى هذه المبادىء المنتشرة إنتشد حولها معتنقوها ، وهذه المذاهب الحاكمة تمسك بالسلطة فى أيديها ، وتنفذ بالقوة ما تريد ؟

---

(١) الأحزاب ٣٩

إنها لم تولد فى ميدان الحياة العامة على هذا النحو المكتمل ، بل وصلت إلى أوضاعها الأخيرة بعد مراحل متناسقة وأطوار متلاحقة . لقد بدأت فكرة ، ثم ارتفعت إلى عقيدة ، ثم استحالت إلى نظام ، وهذه السلسلة - من فكرة إلى عقيدة إلى نظام - قريبة الشبه بمظاهر الشعور التى قررها علماء النفس ، وهى الإدراك ، والوجدان ، والنزوع .

وينبغى لمؤرخى الرسالات وحملة الدعوات أن يلاحظ هذه الأدوار التى تجتازها المبادىء والمذاهب ، حتى يواجهوا كل دور بما يستلزمه من إعداد خاص .

والأصول التى قامت عليها الدعاية للإسلام لم تتجاهل هذا الموقع بل توقعته ، ولذلك قامت على هذه الآية المحكمة « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »(١) .

والرسول ﷺ فى تبليغه للدعوة الإسلامية سلك هذا الطريق من خلال ضربه للأمثال وبيانه المعنى الخفى فى صورة واقعية محسة .

فالحكمة كأسلوب انفرد به المثل .

والموعظة كأسلوب انفرد به المثل .

والمجادلة كأسلوب انفرد به المثل .

يقول إمام البلاغة — عبد القاهر الجرجانى — فى كتابه أسرار البلاغة .

« واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه ، أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى

---

(١) النحل ١٢٥

أو برزت هى باختصار فى معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة ... !

فإذا كان حجاجاً كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر » .

« وإن كان وعظا ، كان أشفى للصدر ، وأوعى إلى الفكر ، وأبلغ فى التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلى الغيابه ، ويبصر الغاية ، ويبرىء العليل ، ويشفى الغليل »(١) .

وقد زكى الله المثل ، ورفع من شأنه حينما قال : « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضه فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين »(٢) .

« ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم »(٣) « ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا »(٤) « ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شىء جدلا »(٥) وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون »(٦) .

وعلى ضوء هذه الملاحظات سنضطر إلى بيان معنى المثل لغة واصطلاحاً وبيان أقسامه فأقول وبالله التوفيق :

أولا : المثل فى لغة العرب :

المثل — بكسر الميم وسكون الثاء — ، والمثل — بفتح الميم والثاء — والمثيل ، كالشبه والشبه ، والشبيه لفظا ومعنى ، والجمع أمثال .

وقد يعبر بالمثل عن وصف الشىء وصفته نحو قوله تعالى « مثل الجنة

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص١٩٨ (٢) البقرة ٢٦
(٣) النور ٥٣ (٤) الإسراء ٨٩
(٥) الكهف ٥٤ (٦) العنكبوت ٤٣

التي وعد المتقون ، أى صفتها .

والمثال يستعمل بمعنى الموصوف والصورة ، جمعه أمثلة ، يقولون مثال كذا ، أى وصفه وصورته والمثال اسم من ماثله أى شابهه ، والأمثال جمع مثل من يضرب من الأمثال .

قال المبرد : المثل مأخوذ من المثال وهو قول سائر ، يشبه به حال الثانى بالأول ، والأصل فيه التشبيه ، فقولهم « مثل بين يديه » إذا انتصب ، فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول كقول كعب بن زهير :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأباطيل

فمواعيد عرقوب : علم لكل ما لا يصح من المواعيد .

ثانياً : المثل اصطلاحاً — عند المحدثين :

ما أضيف إلى النبى — ﷺ من قول يشبه فيه حالة ما بأقرب الصور شبها بها وأكثرها مماثلة . وذلك كقوله ﷺ « إن من البيان لسحرا » .

قاله النبى — ﷺ — حين وفد عليه عمرو بن الأهتم ، والزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم فسأل عليه الصلاة والسلام عمرو بن الأهتم عن الزبرقان : فقال عمرو : مطاع فى أدنيه ، شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره ، فقال الزبرقان : يا رسول الله إنه ليعلم منى أكثر من هذا ، ولكنه حسدنى : فقال عمرو : أما والله إنه لزمر المروءة ، ضيق العطن ، أحمق الوالد ، لئيم الخال ، والله يارسول الله ، ما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الأخرى ، ولكنى رجل رضيت ، فقلت أحسن ما علمت ، وسخطت فقلت أقبح ما وجدت . فقال عليه الصلاة والسلام ، إن من البيان لسحراً يعنى أن بعض البيان يعمل عمل السحر ، ومعنى السحر : إظهار الباطل فى صورة الحق ، والبيان : إجتماع الفصاحة والبلاغة ، وذكاء القلب مع اللسن . وإنما شبه بالسحر لحدة عمله فى سامعه ، وسرعة قبول القلب له .

ويضرب هذا القول النبوى : فى استحسان المنطق وإيراد الحجة البالغة(١)

أقسام المثل النبوى

أولا : المثل المصرح به :

وهو كل قول صرح فيه بلفظة « مثل » أو ما يماثلها من أدوات التشبيه.

ويأتى هذا النوع فى قوالب متعددة منه :

(أ) القالب الذى يعول على القصة التمثيلية :-

توجد قضايا كلية ، وحقوق عقلية مجردة يهدف الرسول ﷺ إلى تجليتها وتوضيحها وفى سبيل ذلك اتخذ الرسول — القصة التمثيلية — أسلوباً من أساليب التوضيح والبيان . ومن أمثلة ذلك قوله ﷺ : لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم ، كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ؛ فأيس منها ، فأوى شجرة فاضطجع فى ظلها ؛ قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك ؛ إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ، ثم قال : من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح(٢)

---

(١) مجمع الأمثال للميدانى حـ ١ صـ ٧

(٢) صحيح مسلم حـ ٧ صـ ١٣ ط التحرير .

(ب) القلب الذى يعول على التشبيه :-

والأسلوب النبوى يشيع فيه هذا النوع الذى يعتمد على التشبيه وأدواته فهو يعبر بالصورة المحسة عن المعنى الذهنى ؛ والحالة النفسية ، وعن الحادث الغيبى فكأنه بذلك يخرج المفهوم الغامض فى صورة حسية، ملازمة للإنسان لا تفارقه ، وهذا البيان يرد الحوادث ، والمشاهد والأحكام ، والمعنى الذهنى والحالة النفسية ، كأنها شاخصة حاضرة .

ومن أمثلة ذلك : عن زيد بن سلام أن أبا سلام حدثه أن الحرث الأشعرى حدثه أن النبى ﷺ قال : إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ، ويأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها ، وأنه كاد أن يبطىء بها ، فقال عيسى : إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم ، وإما أنا آمرهم ، فقال يحيى : أخشى إن سبقتنى بها أن يخسف بى ، أو أعذب ، فجمع الناس فى بيت المقدس ، فامتلأ المسجد ، وقعدوا على الشرف ، فقال : إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن ، أولهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجلا اشترى عبداً من خالص ماله ، بذهب أو ورق ، فقال هذه دارى . وهذا عملى ، فاعمل وأد إلى ، فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟

وإن الله أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته مالم يلتفت .

وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة ، معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها ، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ،

فأوثقوا يده ، إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم . وآمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد ، لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله

قال النبى ﷺ وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن : السمع ، والطاعة ، والجهاد ، والهجرة ، والجماعة ، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر ، فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه إلا أن يرجع ، ومن دعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا(١) جهنم ، فقال رجل يارسول الله ، وإن صلى وصام ؟ قال وإن صلى وصام . فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين ، عباد الله(٢)

(ج) القالب الذى يحول على القياس :

والقياس فى اللغة : التمثيل والتشبيه . وهما يقعان بين الأشياء وبعض معانيها لا فى سائرها لأنه ليس يجوز أن يشبه شيء شيئاً فى جميع صفاته ، ويكون غيره .

وقد أفرد الناصح الحنبلى مؤلفاً جامعاً لكل أنواع الأقيسة العقلية مستقى من رسول الله ﷺ لقد كان الصحابى يأتى رسول الله ﷺ يسترشده حكما لا يعلمه ، فيتلقى من المعصوم ﷺ . حكم الله فيما سأل ، ثم يقربه رسول الله ﷺ لهذا السائل بقياس ماهو معلوم لدى السائل على ماهو مجهول لدى السائل أيضاً ، وليس مجهولا لرسول الله ﷺ فيستقر

---

(١) جثا جهنم : يقال بالحاء المهملة من حثا إذا غرف وضم ، ويقال بالجيم من جثا جمع جثوة وهى الجماعة المحكوم عليهم بالنار

(٢) الجامع الصحيح (سنن الترمذى) حـ ٥ ص ١٤٨ : ١٤٩

الحكم فى نفس السائل ويطمئن إليه قلبه ، ومع ذلك فهو نص من نصوص الشريعة الإسلامية ومن أمثلة ذلك :

عن أبى الأسود الدؤلى ، عن أبى ذر : أن ناساً من أصحاب النبى ﷺ قالوا للنبى ﷺ : ذهب أهل الدثور بالأجور : يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم .

قال : أو ليس قد جعل الله لكم ماتصدقون ؛ إن كل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة

قالوا : يارسول الله ، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر .

قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام ؛ أكان عليه وزر ، وكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر »(١)

ثانياً المثل المكنون

هو كل قول لم يصرح فيه بلفظة « مثل » أو ما يماثلها من أدوات التشبيه ولكنه يدل على معان رائعة فى إيجاز يكون له وقعه إذا نقل إلى مايشابهه . وقد جاء فى السنة النبوية كثير من هذا النوع .

من أمثلة ذلك : أنتم أعلم بأمور دنياكم

قصة هذا الحديث معروفة ، فقد مر الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى المدينة على قوم يؤبرون النخل - أى يلقحونه - فقال : لو لم يفعلوا

---

(١) صحيح مسلم جـ ٣ ص ٨٢ ط محمد على صبيح . البخارى جـ ٧ ص ٨٩ ط الشعب .

لصلح : فامتنع القوم عن التلقيح ـ للنخل ـ في ذلك العام ظناً منهم أن ذلك من أمر الوحي ، فلم ينتج النخل إلا شيصاً ، فلما رآه النبي ـ ﷺ ـ على هذه الصورة سأل عما حدث له : فقالوا : « قلت كذا وكذا .. » ، قال : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » ، (عن عائشة وعن ثابت وعن أنس) . وفي صحيح مسلم : عن موسى بن طلحة عن أبيه أن النبي ـ ﷺ ـ قال : (ما أظن يغني ذلك شيئاً .) ثم قال : إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني ظننت ظنا فلا تأخذوني بالظن : ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به » .

بهذا سن الرسول ـ ﷺ ـ قاعدة ثابتة لحياة الإنسان المادية القائمة على التجارب والاجتهاد فهو لم يغفل ذلك التطور من حسابه ، ويترك الناس بلا دليل ، لكي يتصرفوا في تشريعاتهم وتنظيماتهم وفق أهوائهم كلا ، وإنما سن لهم بذلك قاعدة ثابتة قائمة على قواعد علمية تبدأ بالملاحظة ، والتجربة والاستنباط .

ثالثاً : المثل المرسل :

ويقصد به الجمل التي أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه أو ما يمائله . ولكن ؛ من كثرة الاستشهاد بها ، صارت مشهورة بين الناس ، وتعود اللسان النطق بها . فمن كثرة تكرارها صارت مسار المثل .

ومن أشهر هذا النوع :

(ا) القلب الذي يعول على الموعظة :

ومن أمثله ذلك : قوله ﷺ : ـ

وليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت »[1] .

---

(١) رواه مسلم ؛ الترمذي ؛ النسائي .

وقوله ﷺ : « اتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب »(١) .

(ب) القلب الذى يعول على الحكمة :

ومن أمثلة ذلك قوله ﷺ :

« الشؤم فى المرأة والفرس والدار »(٢) .

« كلكم راع ومسؤل عن رعيته »(٣) .

هذه بعض النماذج التى اشتمل عليها المثل النبوى ؛ من خلال أساليبه المتعددة ، والتى يحتاج إليها الداعى إلى الله ، فى عرضه للفكرة المطروحة ، ومن خلال هذا العرض وجدنا أن المثل النبوى كأسلوب قد اشتمل على الحكمة ، والموعظة ، والمجادلة وصدق الله حيث يقول « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »(٤) .

---

(١) البخارى : عن ابن عباس حـ٣ ص١٦٩

(٢) ابن ماجه حـ١ ص٦٤٢ ؛ البخارى حـ٤ ص٣٥ ؛ الترمذى حـ٥ ص١٢٦

(٣) سنن أبى داود حـ٢ ص١١٧ ؛ البخارى حـ٧ ص٤١

(٤) النحل ١٢٥